الاتصال العلمى فى التراث الإسلامى من صدر الإسلام حتى نهاية العصر العباسى *

عرض
هاشم فرحات
مدرس مساعد بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات
آداب القاهرة

يعد الاتصال العلمى المتبادل بين العلماء فى شتى المجالات الموضوعية، وفى مختلف الأزمنة أساس النشاط العلمى. ويهدف هذا الكتاب إلى التعرف على الأنشطة الخاصة بتبادل المعلومات بين علماء الإسلام عن طريق مصادرها الوثائقية فى إطار ما يعرف بالاتصال العلمى.

وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب اشتملت على سبعة فصول. أما الباب الأول وموضوعه النشاط العلمى حتى نهاية الدولة العباسية، فقد أفرده المؤلف لقياس حجم النشاط العلمى الذى شهدته الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر العباسى الذى شهد أفول نجم الحضارة الإسلامية بسقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ. وقد اعتمد المؤلف فى قياس حجم هذا النشاط على عنصرين أساسيين يمثلان هذا النشاط ويعبران عنه، وهما عنصران قابلان للقياس من جهة، ويعدان من أهم مقومات الاتصال العلمى من جهة أخرى، ويقصد بهذين العنصرين، المؤلفين والإنتاج الفكرى. ومن ثم جاء هذا الباب فى فصلين هما الفصل الأول والفصل الثانى من هذا الكتاب.

أما الفصل الأول فيتناول المؤلفين من حيث أعدادهم وتخصصاتهم، ومعدلات النمو فى هذه الأعداد، وذلك بهدف الوقوف على حجم النشاط العلمى الذى شهدته الفترة الزمنية التى يتناولها هذا الكتاب. أما الفصل الثانى فيتناول الإنتاج الفكرى وموضوعاته، ومعدلات النمو فى هذا الانتاج، وذلك للوقوف أيضا على مابلغه النشاط العلمى فى الإسلام من نمو وازدهار. وأول ما يطالعنا من نتائج هذين الفصلين هو النمو المطرد فى حجم النشاط العلمى منذ ظهور الإسلام فى شبه الجزيرة العربية. فقد كان للعرب قبل ظهور الإسلام معرفة محدودة ببعض العلوم، وكانت هذه المعرفة لاتتعدى حدودها إلى تأليف الكتب فى هذه العلوم، ولما ظهر الإسلام أضاء بنوره العقول، فحث على طلب العلم وتحصيله. ومن ثم نشط المسلمون فى البحث والتأليف، وأخذت أعداد المؤلفين فى النمو والزيادة

* ناصر محمد عبدالرحمن. الاتصال العلمى فى التراث الاسلامى من صدر الإسلام حتى نهاية العصر العباسى / ناصر محمد عبد الرحمن؛ تقديم حشمت قاسم. ـ [القاهرة]: مكتبة غريب، [١٩٩٤]. ـ ٢٨٢ ص: أبض؛ ٢٤ سم.

المطردة منذ القرن الأول الهجرى حيث بلغ عدد المؤلفين الذين عاشوا فى هذا القرن ٣٨ مؤلفا، وفى القرن الثانى الهجرى بلغ عددهم ٢١٧ مؤلفا. وقد أخذت أعداد المؤلفين فى النمو والزيادة لتصل إلى القمة فى القرن السابع الهجرى حيث بلغ عددهم ١٠٣٦ مؤلفا.

ولم تقتصر دعوة الإسلام على طلب علوم الدين فحسب، وفى ظل هذا النشاط العلمى لم تقتصر همة علماء الإسلام على بحث هذه العلوم فقط، بل أفسحت هذه الدعوة المجال لطلب علوم الدنيا أيضا فاتجه هؤلاء العلماء إلى البحث فى هذه العلوم إلى جانب علوم الدين. وكان من البداهة أن يوجه علماء الإسلام ومؤلفوه عنايتهم فى الأساس إلى علوم الدين والتأليف فيها، غير أن هذا لم يطغ على اهتمامهم بالتأليف فى العلوم الأخرى، فقد اهتم علماء الإسلام بالفقه أو التشريع الإسلامى والتأليف فى موضوعاته ومصادره، كما اهتموا بالتأليف فى علوم الحديث النبوى الشريف منذ بدءوا فى جمعه على أواخر القرن الأول الهجرى، وأوائل القرن الثانى الهجرى. كذلك اتجه اهتمام المؤلفين إلى الآدب، والشعر ونقده، والتاريخ، وعلوم القرآن الكريم، واللغة والنحو، والفلسفة، والطب، والرياضيات، والخطابة، والفلك، والجغرافيا، والموسيقى، والكيمياء، وعلمى الحيوان والنبات، وكان الاهتمام بهذه العلوم متدرجا على نحو الترتيب السابق، حيث أظهرت نتائج هذا الفصل أن عدد المؤلفين فى الفقه كان أكبر من عدد المؤلفين فى علوم الحديث النبوى الشريف وهكذا...

أما الفصل الثانى فقد تناول فيه المؤلف حجم الإنتاج الفكرى الذى يعد ثمرة هذا النشاط العلمى. وقد اتخذ المؤلف من كتاب (الفهرست) لابن النديم أداة لقياس حجم هذا الإنتاج ومعدلات نموه، خاصة فى الفترة الواقعة بين القرن الأول الهجرى، ونهاية النصف الأول من القرن الرابع الهجرى.

وقد ساعد شغف المؤلفين فى هذه الفترة بالقراءة، وحرصهم على اقتناء الكتب والإفادة منها فى نمو حجم الإنتاج الفكرى وبالتالى فى نمو النشاط العلمى ودفع عجلته.

وإذا كان موضوع الباب الأول من هذا الكتاب هو النشاط العلمى الذى شهدته القرون السبعة الأولى للهجرة؛ فإن موضوع الباب الثانى هو حلقات دورة الاتصال الوثائقى ـ والاتصال الوثائقى هو أحد شقى الاتصال العلمى ـ ويتناول المؤلف فى هذا الباب دور العناصر المشاركة فى هذه الدورة، حيث تناول دور كل من النشر والوراقة، والمكتبات، والمؤلفين فى هذه الدورة. ومن ثم فقد قسم المؤلف هذا الباب إلى ثلاثة فصول، ناقش فى أولها مقومات نشر الكتب فى الفترة موضوع الدراسة ممثلة فى المؤلفين، والوراقين، وبائعى الكتب، ودور كل منهم فى هذه الدورة. أما الفصل الثانى من هذا الباب فقد خصصه المؤلف لدراسة دور المكتبات فى هذه الدورة، ومدى اعماد المؤلفين عليها فى امدادهم بمصادر المعلومات. أما الفصل الثالث فقد تناول دور المؤلفين فى هذه الدورة من حيث إفادتهم من الإنتاج الفكرى السابق الذى توافر لهم عن طريقى النشر، والمكتبات.

وأول ما يطالعنا من نتائج هذا الباب أنه إذا كان انتقال المعلومات من مصادرها ـ وهم المؤلفون ـ إلى المتلقين ـ وهم المستفيدون ـ يمر بعدد من العناصر خلال دورة الاتصال الوثائقى، فقد حرص المؤلفون على بث نتائج بحوثهم فى شكل مؤلفات أو كتب، حيث أدرك مؤلفو الإسلام أن الاتصال أساس النشاط العلمى، وكان من سبل هذا الاتصال الكتب. وقد قام الوراقون بتوفير هذه الكتب فى

نسخ متعددة حتى يتسنى للمؤلفين وغيرهم الحصول عليها والإفادة منها. وقد حرص كثير من المستفيدين من هذا الإنتاج الفكرى على تحصيل نسخ من الكتب التى توافرت عن طريق النشر، وجمعها فى مكتبات خاصة، أو مكتبات شبه عامة، أو مكتبات عامة لتكون عونا لهم فى تأليف كتب جديدة لتكتمل دورة الاتصال الوثائقى بالدور الذى يلعبه المؤلفون من اعتمادهم على الإنتاج الفكرى السابق فى تأليف كتب جديدة تجد طريقها إلى سوق الكتبا وأرفف المكتبات. ويظهر لنا هذا لادور جليا بتتبع المراحل المختلفة التى يمر بها المؤلف بدءا من شروعه فى تأليف أحد كتبه، وحتى الانتهاء من كتابته وإتاحته للمستفيدين فى الصورة التى يرتضيها.

أما الباب الثالث والأخير من هذا الكتاب فموضوعه الاستشهاد المرجعى ومراحل تطوره، ويهدف هذا الباب إلى التعرف على الأساليب المختلفة التى اتبعها المؤلفون للتعبير عن مصادرهم التى أفادوا منها فى تأليف كتبهم.

وقد قسم المؤلف هذا الباب إلى فصلين تناول فى أولهما مراحل تطور الاستشهاد المرجعى بدءا من اعتماد المؤلفين فى ذكر مصادرهم على الأسانيد، ثم اختصارها، ثم إهمالها فى أغلب الأحيان، ثم ذكر عناوين مصادرهم وأسماء مؤلفيها فى آخر الأمر. أما الفصل الثانى من هذا الباب فقد تناول أساليب المؤلفين فى ذكر بيانات مصادرهم، وكيفية تعاملهم مع النصوص المستشهد بها من هذه المصادر، وذلك من خلال دراسة مصادر مؤلفاتهم، وغرضهم من ذكرها، وحرصهم على النص عليها، ومواقع ذكرها من هذه المؤلفات، وكذلك من خلال دراسة نصوص استشهاداتهم المقتبسة من هذه المصادر، من حيث ذكرهم لبداية النص المستشهد به ونهايته، وحجم الاستشهاد والتصرف فى نص الاستشهاد.

ونستطيع أن نجمل نتائج فصلى هذا الباب فيما يلى؛ فلقد خلص المؤلف فى فصل سابق إلى أن المؤلفين كانوا يعتمدون فى تصنيف كتبهم، بدءا من الشروع فى تأليفها وحتى إعادة النظر فيها، على الإنتاج الفكرى السابق. غير أن من يطالع هذه الكتب وخاصة ما يرجع منها إلى القرون الأربعة الأولى للهجرة، يحسب أن هؤلاء المؤلفين لاشأن لهم بالإنتاج الفكرى السابق، وأن كل النصوص المستشهد بها فى هذه الكتب إنما انتقلت إلى مؤلفيها شفاهة، خاصة وأن هذا الظن يدعمه ماكان يسبق هذه النصوص من أسانيد تتخللها كلمات مثل حدثنا وأخبرنا وأنبأنا وقال... إلخ.. غير أن الحقيقة غير ذلك، فقد اتبع المؤلفون خلال هذه الفترة أسلوبا فريدا لتوثيق المعلومات المستشهد بها من الإنتاج الفكرى السابق، ويستند هذا الأسلوب إلى ما أُثر عن علماء الحديث الشريف فى توثيق أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وروايتها. فقد وضع هؤلاء العلماء عدداً من الطرق التى يجب سلوك واحد أو أكثر منها فى رواية حديث النبى صلى الله عليه وسلم.

وقد أخذ العلماء والأدباء والؤرخون بهذه الطرق وعملوا بها، فكان لايجوز لأحدهم رواية أية معلومات من أى كتاب سابق دون مراعاة لهذه الطرق واتباع سبلها، وهى إما أن يكون قد سمع هذا الكتاب من مؤلفه أو أحد تلامذته، أو قرأه عله أو على أحد تلامذته، أو أن يكون المؤلف أو أحد تلامذته قد أجازله روايته، أو ناوله إياه، أو كتبه له، أو أمر غيره بكتابته ودفعه إليه، أو أعمله أن هذا الكتاب سماعه، أو أوصاه بروايته، أو أن يكون العالم قد وجد كتابا برواية غيره، فرواه أو استشهد

بمعلوماته عن طريق هذه الرواية. وقد كانت صيغ أداء الرواية بهذه الطرق الثمانية كلمات مثل حدثنا، وأنبأنا، وسمعت، وقال...إلخ، وكلها كلمات توحى بالرواية الشفهية للنصوص، وهذا غير صحيح، وإنما الأساس فى اتباع كل هذه السبل هو الكتاب. ويخلص المؤلف من مناقشته فى هذا الاتجاه إلى أن الرواية تقوم على ثلاثة عناصر هى: المؤلف أو أحد تلامذته، والكتاب، والراوى.

ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن مجالس الإملاء، ومجالس الرواية والملامح الفارقة بينهما، كما تحدث عن فئات رواة الكتب. ثم انتقل للحديث عن مرحلة أخرى من مراحل تطور الاستشهادات وهى مرحلة اختصار الأسانيد، ثم إهمالها فى آخر الأمر وفى أكثر الأحيان.

وفى الفصل الأخير من هذا الكتاب يتحدث المؤلف عن المصادر والاستشهادات متناولا دوافع المؤلفين لذكر مصادرهم والإشارة إليها، وكان من أهم هذه الدوافع، الاعتراف بفضل السلف على الخلف فيما صنفوه من كتب، وإسناد المعلومات المستشهد بها إلى أصحابها عملاً بمبدأ الأمانة العلمية، بالإضافة إلى دعم أفكارهم بالحجة والبرهان، وانتقاد الأعمال الفكرية السابقة، والتعريف بالإنتاج الفكرى السابق الذى له صلة موضوعية بمؤلفاتهم.

وتشير هذه الدراسة إلى أن المؤلفين قد حرصوا على ذكر مصادر كتبهم، وكان ذلك فى موقعين مختلفين، وكان لكل منهما دوره فى الاشارة إلى هذه المصادر والتعريف بها. وهذان الموقعان هما:

١ ـ قائمة عامة بالمصادر.

٢ ـ متن الكتاب.

ونظر لاختلاف الدور الذى يلعبه كل من هذين الموقعين فى ذكر المصادر، فقد اختلفت البيانات المتعلقة بالمصادر التى ترد فى كل منهما، وقد ناقش المؤلف مع التمثيل مايتعلق بهذين الموقعين وما يرد فيهما من مصادر. ويشير المؤلف إلى أن هؤلاء المؤلفين قد حرصوا أيضا على إعلام القارىء وتعريفه ببدايات النصوص المستشهد بها ونهاياتها، وكانت لهم أساليبهم فى هذا الصدد، وقد ناقش المؤلف هذه الأساليب، كما ناقش اختلاف حجم النص المستشهد به، ولجوء بعض المؤلفين إلى التصرف فى نص الاستشهاد أو فى عدد من النصوص. وقد حرصوا أيضا ذكر شكل التصرف.

وبعد فإن هذا الكتاب موجه إلى المهتمين بقضايا علم المعلومات بوجه عام، والاتصال العلمى بوجه خاص من جهة، وإلى المؤرخين ومؤرخى العلوم والمحققين والمهتمين بالتراث الإسلامى من جهة أخرى، ونسأل الله تعالى أن ينفع به.